التنظيمات الحرفية والمجتمع بتلمسان الزيانية
(7- 10هـ/13- 16م)
خصوصية التنظيم الحرفي وطبيعة العلاقة

رشيد خـــالـدي، جامعة تلمسان
تحت إشراف الدكتور محمد بوشقيف، جامعة تلمسان

الملخص:

اقتضت الحياة الاقتصادية والاجتماعية بمدينة تلمسان في الفترة المدروسة (7-10هـ/13-16م)؛ تكتل الحرفيين والصناع في تنظيمات مختلفة بالموازاة مع انتقال الدولة الزيانية من مرحلة البداوة إلى مرحلة التحضر، وهو ما يعني أن الطوائف الحرفية أصبحت أكثر تنظيما وفاعلية وتحتكم بدورها إلى قوانين ونظم ترتبط بالتسيير والتدرج والتخصص، وتحدد في الوقت نفسه طبيعة العلاقة بين التنظيمات الحرفية ومكونات المجتمع الأخرى.

يظهر أن إسهام التنظيمات الحرفية في تنشيط الحياة الاقتصادية والاجتماعية كان على جانب كبير من الأهمية والتنوع، وسيتمكن الحرفيون من تلبية متطلبات فئات اجتماعية داخل المدينة وخارجها. ولعل الفضل الكبير في ذلك يرجع للصناع في توفير الخدمات المختلفة المتعلقة بالعلم والسكن واللباس والغذاء وخدمات أخرى أيضا. كما استقطبت التنظيمات الحرفية يدا عاملة معتبرة مستفيدة من تنظيم المجال داخل مدينة تلمسان، وهو الأمر الذي جعل الحرفيين والصناع يوظفون مهاراتهم لخدمة مجتمعهم.

الكلمات المفتاحية: الصناع، الخدمات، الطوائف الحرفية، الحسبة، المجال، المدينة، التوزيع، التخصص، الغش، الأسواق.

مقدمة

يشكل موضوع التنظيمات الحرفية – بالمدينة الإسلامية عموما وبمدينة تلمسان خصوصا – مسألة جديرة بالبحث والدراسة، بالنظر إلى أن الموضوع أعلاه يستهدف في المقام الأول اقتفاء مراحل الجماعة الحرفية، والتي سوف نطلق عليها اسم " **التنظيمات الحرفية** "، مع ما يعني هذا المصطلح من أنه توجد نظم وأسس ثابتة تسهر على السير الحسن للطائفة الحرفية، وهو ما سنثبته في متن هذه الدراسة. بالإضافة إلى طبيعة العلاقة بين الحرفيين وعناصر المجتمع في المقام الثاني، والتي تتلخص في الخدمات التي قدمها الصناع لفائدة عناصر المجتمع المختلفة.

من المعروف أن مدينة تلمسان في الفترة الزيانية (7-10هـ/13-16م) قطعت شوطا مهما في الحضارة والتمدن مقارنة بالفترات التي سبقتها، ويظهر جليا بأن العناصر التي كانت تؤطر الحياة العامة للفئات الاجتماعية قد وُجدت خلال هذه الفترة بشكل يختلف عن سابقه، واستوفت –بالتالي– معايير التنظيم والاستقطاب، خاصة بالنسبة للحرفيين والصناع الذين سيكون لهم تواجد وحضور بارز داخل النسيج الحضري لمدينة تلمسان، عندما استطاعوا أن يتجمعوا فيما بينهم مكونين بذلك ما أصبح يعرف فيما بعد بالنقابة.

تأسيسا على ما سبق ذكره، ستحاول هذه الدراسة أن تبحث في بنية التنظيمات الحرفية من الداخل وفي علاقتها بعناصر المجتمع ومكوناته الفاعلة، ويصبح –بالتالي– الإلمام بتفاصيل هذه التنظيمات بدراسة الجوانب المختلفة منها كالانتماء الديني للحرفيين والتخصص الحرفي والتعليم والتدرج في الحرفة الواحدة وقضايا التسيير وتدخل الفقهاء؛ جزءا لا يتجزأ من هذه الورقة البحثية. وحتى نستوعب الموضوع بشكل أوضح يمكننا أن نطرح التساؤلات التالية:

إن تعبير "التنظيمات الحرفية" يستوجب طرح جملة من الأسئلة، وهي: ما هي القواعد والأسس التي كانت تنظم العمل الحرفي بتلمسان الزيانية؟ وما هي الأطراف التي استهدفت الأنشطة الحرفية في مجال التأطير والمراقبة وإنزال العقوبة بالمخالفين من الحرفيين؟

هل تمكن الحرفيون والصناع من الاستجابة لمتطلبات الحياة العامة بالمدينة، وبالتالي الحصول على الإشادة والتنويه؟[1]

هذه التساؤلات وغيرها سنحاول الإجابة عنها وفق خطة تأخذ بعين الاعتبار الرجوع إلى المادة الخبرية من مصادر ومراجع، مع محاولة تجميع المعلومات منها لننتقل بعد ذلك إلى دراسة وتحليل ما توفر لدينا من أفكار تتعلق بالتنظيمات الحرفية بتلمسان الزيانية، للوصول إلى نتائج واستنتاجات هي في الأخير محصلة هذه الورقة البحثية. وسيتم هذا الأمر بالاعتماد بشكل أساسي على المنهج التاريخي على اعتباره الأنسب لمثل هذه الموضوعات التي ترصد مجتمع الحرفيين والصناع والمجال الذي كان يستوعب هؤلاء ويحتويه.

مكونات التنظيمات الحرفية:

استمدت التنظيمات الحرفية وعلاقتها بالمجتمع بالمدينة الإسلامية عموما وبمدينة تلمسان خصوصا نظمها وأعرافها من مآخذ متعددة، منها ما هو ثابت ومنها ما هو متغير، كان يستند أولها في مشروعيته إلى الدين

الإسلامي محددا يسهر على تنظيم المجال ومكوناته داخل النسيج الحضري؛ وفق رؤية فقهية تتخذ من قاعدة "لا ضرر ولا ضرار" أساسا لضمان حقوق الأفراد والدولة معا. أما الثاني فيستند إلى مجموعة من التدابير والتقاليد التي توارثتها الأجيال في فترات تاريخية متعاقبة، وأصبحت – بالتالي– مرجعا يحتكم إليه مجتمع الحرفيين في علاقتهم بالعناصر الأخرى التي كانت تتعايش جنبا إلى جنب داخل مدينة تلمسان في الفترة الوسيطة. وبالنسبة للأمرين الأول والثاني، وجب التذكير بأن المصلحة العامة كانت تؤخذ بعين الاعتبار وفي كل الحالات، ويقع على عاتق الأفراد والتنظيمات الحرفية مراعاة النتائج في المقام الأول قبل النظر في المكاسب المحققة، ولعل هذا الأمر هو الذي جعل كثيرا من الباحثين – في تناولهم لنشأة الأصناف والطوائف الحرفية بالمدينة الإسلامية– ينطلقون من هذه الفترة بالتحديد في التأريخ لظهور النقابة مع مطلع العصر الحديث.

تأسيسا على ما سبق ذكره، يظهر أن المجال الحِرفي بمدينة تلمسان في الفترة الزيانية أسهمت فيه عناصر عدة وتكوينات مختلفة. بالإضافة إلى الدور المحوري للدولة المخزنية التي كانت طرفا مباشرا وحاسما في تعزيز الانسجام والمراقبة، مستفيدة في ذلك من عامل الاستقرار السياسي والاقتصادي الذي من شأنه تسهيل عمل التنظيمات الحرفية. وسنذكر فيما يلي أبرز المحاور التي ارتكز عليها نظام الطوائف الحرفية بتلمسان.

1– الانتماء الديني:

جمعت التركيبة الاجتماعية بمدينة تلمسان خلال العهد الزياني بين عناصر مختلفة معظمهم من المسلمين وأقلية من أهل الذمة مسيحيين ويهود، وسيلاحظ في هذا الصدد بأن المكون الديني لم يكن بمعزل عن الأنشطة الحرفية التي كانت تمارسها الفئات الاجتماعية بالمدينة، وسيفرض هذا المعطى في كثير من الفترات على الطائفة الدينية الواحدة نوعا من الحِرف، بمعنى تخصص كل واحدة منها في نشاط معين، لكن هذا لا يعني أبدا أن مبدأ التخصص قد روعي في كل الأحوال والظروف.

استقطبت مدينة تلمسان كغيرها من مدن الغرب الإسلامي أعدادا من اليهود الذين استقروا بالمدينة في فترات تاريخية مختلفة، وتفيد المادة الخبرية بأن تلمسان في الفترة موضوع الدراسة (7-10هـ/13-16م) استقبلت جالية يهودية كان من بينهم حرفيون وتجار، وعمل هؤلاء على الإسهام في الأنشطة الحرفية، وكان لهم نشاط بارز في الحركة التجارية بين تلمسان وبلاد السودان الغربي[1]. واشتهرت العناصر اليهودية أيضا باحترافها للصياغة والصيرفة ضمن المجال الحرفي بالمدينة الإسلامية، ليس في تلمسان وحسب، بل في كل المدن الإسلامية[2]. ومما يلاحظ في هذا الخصوص بأن الدولة المخزنية في العصر الوسيط لم تمنع اليد العاملة اليهودية من الاشتغال بكثير من الحرف، وعليه، فقد احترف اليهود صنائع متعددة، لكن يبدو أنهم تخصصوا في بعضها. فيمكن القول بأن صناعة الحرير كانت حرفة يهودية خالصة، واحترف اليهود الصباغة وصناعة النقود وتحضير الأعشاب الطبية

[1]– عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية) موفم للنشر والتوزيع– الجزائر2002، ج1، ص 193.

[2]– عز الدين عمر موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت– لبنان2003، ص 110.

والعقاقير المختلفة[1]. وسيكون من المفيد جدا أن نشير إلى أن اليهود امتهنوا بعض الحرف التي كانت حكرا على المسلمين، ويندرج تحت هذا الأمر صناعة الخبز وغيرها من الصنائع التي لها علاقة بغذاء العامة من سكان المدينة[2].

أما بالنسبة للعناصر المسيحية المتواجدة بمدينة تلمسان الزيانية، فقد كان لهم أيضا حضور بارز ضمن المجال الحرفي الذي كان يستهدف في المقام الأول تلبية حاجيات السلطة المركزية بالمدينة وخدمة مجهودها العسكري، وفي هذا الصدد، فإن دار الصنعة[3] التي أنشأها السلطان أبو حمو موسى الثاني (760-791هـ/1359-1389م) كان يشتغل فيها عدد كبير من المسيحيين في صناعة الأسلحة خاصة. وبالرجوع إلى المصادر التي أرخت للدولة الزيانية، سنجد أن السلطان أبا تاشفين عبد الرحمن (718-737هـ/1318-1337م) قد استعان هو الآخر بعدد من الأسرى المسيحيين في أعمال البناء والنجارة والأنشطة المرتبطة بهما مثل أعمال الزليج والزخرفة[4].

وعلى صلة بالفكرة ذاتها ، ثمت رسالة بعث بها سلطان تلمسان السابق الذكر إلى دون جاقمة ملك أراغون مؤرخة سنة 1323-1324م؛ يتلخص مضمونها في أن مملكة تلمسان لا يمكن لها أن تستغني عن الحرفيين من الأسرى المسيحيين بالنظر إلى خبرتهم في كثير من الصنائع وحاجة الدولة المخزنية لهم[5]. ولعل في هذه الإشارة ما يفيد بأن الحضور الحرفي للعناصر المسيحية بتلمسان الزيانية – على الأقل في الصدر الأول من عمر الدولة الزيانية – كان يكتسي طابعا نوعيا، ومن يقرأ رسالة السلطان الزياني المذكور يقف عند مسألة في غاية الأهمية والدلالة، ويطرح التساؤل التالي: هل كان للحرفيين المسيحيين بتلمسان كل هذا التأثير في الحياة الاقتصادية لدرجة أن السلطة المركزية بالمدينة لا تستطيع أن تتخلى عنهم؟ ألا يقودنا هذا التساؤل إلى مسألة أخرى، وهي تبعية بعض الأنشطة الحرفية بتلمسان لنظيرتها الأجنبية وقتئذ، بالرغم من أن المسألة الأخيرة قد تبدو للوهلة الأولى غير منسجمة مع روح العصر الوسيط؟

كانت هذه بعض الأنشطة الحرفية التي جذبت إليها أهل الذمة من يهود ونصارى ممن كانوا يتواجدون بمدينة تلمسان في الفترة المدروسة، إلى جانب هؤلاء طبعا، كان هناك عدد كبير من الحرفيين والصناع المسلمين الذين امتهنوا أعمالا متنوعة وكثيرة لأنهم كانوا يشكلون الأغلبية في المجتمع التلمساني، ويظهر من خلال استعراضنا للأنشطة الحرفية بالمدينة من حيث الانتساب الديني بأن مبدأ التخصص قد روعي في بعض الحرف ولو بنسب

---

[1]- محمد حسن، التجار والحرفيون بافريقية بين القرنين السادس والتاسع الهجري (12-15م) ضمن كتاب "المغيبون في تاريخ تونس الاجتماعي" إعداد: مجموعة من الباحثين، تنسيق: الهادي التيمومي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة- تونس1999، ص ص 72-73.

[2]- سناء عطابي، واقع اليهود في المغرب الأوسط من خلال النصوص الفقهية المالكية، مجلة الآداب والعلوم الإنسانة، العدد12، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة قسنطينة- الجزائر2011، ص 189.

[3]- ابن خلدون، يحي، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تقديم وتحقيق وتعليق: عبد الحميد حاجيات، طبعة خاصة، عالم المعرفة للنشر والتوزيع- الجزائر2011، ج2، ص 155.

[4]- المصدر نفسه، ص 239.

[5]- عمر سعيدان، علاقات اسبانيا القطلانية بتلمسان في الثلثين الأول والثاني من القرن الرابع عشر الميلادي، الطبعة الأولى، منشورات سعيدان- تونس2002، ص ص 90-91.

متفاوتة وفي فترات معينة بالنظر إلى خصوصيات المجتمع الحرفي بالمدينة الإسلامية، بحيث يعتبر الحفاظ على أسرار الصنعة داخل الطائفة الحرفية الواحدة قاعدة درجت عليها التنظيمات الحرفية منذ نشأتها.

2- وحدة المكان والمجال:

من المعروف أن المجال الحضري داخل المدينة الإسلامية كان يحتضن نشاطات الحرفيين والصناع، وكان هذا المجال يتخذ من الساحات والدروب والأزقة بالإضافة إلى قيصارية؟ تلمسان فضاء لممارسة الأعمال المختلفة، وقد استغلت التنظيمات الحرفية هذه الأمكنة في عرض منتوجاتها وبضائعها على الزبائن من داخل المدينة وخارجها. وفي هذا السياق، يذكر الوزان بأن الصنائع والتجارات بمدينة تلمسان في القرن 10هـ/16م كانت موزعة على مختلف الساحات والأزقة كما هو الشأن بمدينة فاس في المغرب الأقصى[1]. ولعل في هذه الإشارة المصدرية ما يفيد بأن الطوائف الحرفية بتلمسان كانت منتظمة في المجال الجغرافي الخاص بها، وهي ميزة انفردت بها المدن الإسلامية في الفترة الوسيطة والحديثة كذلك.

يرجع الفضل في تمركز الحرفيين بمدينة تلمسان -كل في مجاله المخصص له- إلى عمل المحتسب، ولعل من يطلع على مصنفات آداب الحسبة بالغرب الإسلامي في العصر الوسيط؛ فسيلاحظ بأن مؤسسة الحسبة كانت هي الطرف البارز في انتظام مجتمع الحرفيين في أماكن خاصة بهم داخل المدينة؛ بالنظر إلى اعتبارات تأخذ في الحسبان المنتِج -وهو الصانع- والمستهلك -وهو الزبون-. فبالنسبة للطرف الأول، فإن هذا التنظيم والتمركز ضمن مجال جغرافي محدد يعود بالفائدة عليهم، بحيث سيؤدي إلى رواج بضائعهم ويدفعهم إلى التنافس، بالإضافة إلى حصول نوع من التجانس بين أفراد الصنعة الواحدة[2]. أما بالنسبة للطرف الثاني — الزبون —، فسيكون من السهل عليه الوصول إلى حاجته دون كبير عناء[3]. ويستنتج من هذا كله بأن انتظام الحرفيين في مجال معين كان يخدم مصالح كل الأطراف المعنية وتحقيقَ المصلحة العامة، وكان من شأن هذا التمركز أيضا أن يسهل من عمل المحتسب في المراقبة والتدخل إذا حدث وأن تنازع بعض الأفراد من الطائفة الواحدة أو نشبت خلافات بين الحرفيين وزبائنهم من العامة، خاصة في المسائل التي تتعلق بالغش والتدليس في المصنوعات[4].

إن الحديث عن تمركز كل حرفة قائمة بذاتها في مجال معين داخل المدينة الإسلامية كما سطرته أدبيات الحسبة؛ لا يجب أن يفهم منه أن الأمر قد تم فعلا على النحو الذي كنا قد أشرنا إليه سابقا، فبعض الأنشطة الحرفية التي تتعلق بتوفير القوت اليومي للسكان مثل طحن الدقيق وأفران الخبز والدكاكين التي تعرض أصناف

---

[1]- الوزان، الحسن بن محمد الفاسي، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان1986، ج2، ص 19.

[2]- خالد محمد مصطفى عزب، تخطيط وعمارة المدن الإسلامية، سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- قطر، العدد58، ربيع الأول 1418، السنة السابعة عشر، الطبعة الأولى، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- قطر1997، ص 99.

[3]- الشيزري، عبد الرحمن بن نصر، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق ومراجعة: السيد الباز العريني، الطبعة الثانية، دار الثقافة، بيروت- لبنان1981، ص 11.

[4]- المصدر نفسه، ص 12.

المأكولات ودكاكين الخياطة؛ كانت تنتشر في أكثر من موضع بالمدينة بالنظر إلى الاستفادة المتواصلة للعامة من خدماتها في أغلب الأوقات. كما أن بعض الحرف والصنائع داخل النسيج الحضري للمدينة يتحكم في توزيعها عوامل ومعطيات لا تخضع بالضرورة للمقتضيات التي تضمنتها كتب الحسبة[1].

نظام العمل الحرفي:

تخضع جميع الأنشطة الحرفية بالمدينة الإسلامية –عموما– لنظام معين هو بمثابة مدونة ومرجعية في الوقت نفسه، تتضمن خطوطها العامة حقوق وواجبات الجماعة الحرفية، بما في ذلك الأسس والأعراف التي كانت تؤطر العمل الحرفي، بالإضافة إلى طبيعة العلاقة بين الحرفيين والزبائن. ومن بين الأطراف الفاعلة في هذا النظام الدولةُ التي كان يقع على عاتقها مراقبة المجال الحرفي في إطار مؤسسة الحسبة الإسلامية، وهناك أيضا أطراف أخرى كان دورها مكمّلا ومتمما لجهود الدولة، وقد مثل هذا الطرف الفقهاء الذين تدخلوا في كثير من المسائل التي تخص الأنشطة الحرفية بالفتوى، وفيما يلي المكونات الأساسية التي شكلت أسس نظام العمل الحرفي.

1– التعليم الحرفي:

جرت العادة أن يتعلم المبتدئ أصول وتعاليم الحرفة داخل ورشة معينة، حيث يجد هناك صانعا متمكنا قد أتقن الصنعة وتراكمت لديه خبرة طويلة، بالإضافة إلى صاحب الورشة –وهو رب العمل–. وكان هؤلاء على علم ودراية بجميع مراحل الصنعة، وكان منهم أمناء الحرف وعرفاء الصنائع[2]، وعلى هذا الأساس، يبدو أن التعليم الحرفي كان يتشكل من رب العمل(المعلم) والصانع والمبتدئ.

إن النظام المتبع في التعليم الحرفي يعتمد على مبدأ التدرج حتى يصبح الفرد متمكنا من صنعة معينة وملما بأسرارها وتقنياتها، وقد يتمكن الصانع المحترف من الاستقلال بنفسه في حانوت خاص، ثم بعد ذلك قد يكون بإمكانه أن يصل إلى مرتبة الرئاسة والمعلّمية[3]. والمتصفح لكتب المناقب سيجد مثلا أن أبا زيد عبد الرحمن بن النجار كان أمينا للحاكة بمدينة تلمسان[4]. وفي السياق ذاته، تطالعنا كتب التراجم أيضا بأن الفقيه أحمد بن زكري (ت 900هـ/1494م) عندما كان صبيا أدخلته أمه ورشة للطراز بالمدينة ليتعلم صنعة الحياكة عند أحد المعلمين، وكانت أجرته نصف دينار في الشهر[5].

---

[1]– عبد اللطيف الخلابي، الحرف والصنائع وأدوارها الاقتصادية والاجتماعية بمدينة فاس خلال العصرين المريني والوطاسي (669-960هـ/1270-1550م) الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة– مصر2011، ص ص 405-406.

[2]– إلياس الحاج عيسى، الحرف اليدوية في المغرب الأوسط (تلمسان أنموذجا) ضمن كتاب "تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني" أعمال الملتقى الدولي بتلمسان، أيام 3-4-5 أكتوبر 2011، منشورات وزارة الشؤون الدينية– الجزائر2011، ج2، ص ص 35-36.

[3]– أحمد مختار العبادي، الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية (الصناعة والأصناف) مجلة عالم الفكر، المجلد11، العدد1، أبريل– مايو– يونيو1980، وزارة الإعلام– الكويت1980، ص 136.

[4]– ابن مرزوق، أبو عبد الله محمد، المناقب المرزوقية، دراسة وتحقيق: سلوى الزاهري، الطبعة الأولى، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية– المملكة المغربية2008، ص 189.

[5]– ابن مريم، المديوني التلمساني، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، تحقيق: عبد القادر بوباية، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان2014، ص ص 111-112.

وعلى صلة بالموضوع، نجد ابن خلدون (ت 808هـ/1406م) في كتابه "المقدمة" يضع فصلا بعنوان: "في أن الصنائع لا بد لها من معلم" ، بحيث يعتبر أن الصناعة في الأصل هي عمل فكري بالأساس ، وكلما استوعب الإنسان الفكرة في ذهنه بالتكرار أولا وبالمعاينة ثانيا ساغ قولنا أنه قطع شوطا مهما في الصنعة، ويختم ابن خلدون ذلك بقوله: "وعلى قدر جودة التعليم وملكة المعلم يكون حذق المتعلم في الصناعة وحصول ملكته"[1] وبما أن الحرف والصنائع عند ابن خلدون منها الضروري البسيط والكمالي المركب، فإن هذا الأخير قد ثبت عنده أن اكتساب أصول صنعة ما لا يحدث مرة واحدة وفي جيل واحد بل بالتدرج[2].

2- التوقيت في العمل:

يبدأ العمل في الورشات الحرفية منذ الصباح الباكر ويستمر إلى المساء، ومن البديهي أن يتوقف الحرفي عن العمل لمدة معينة من الزمن عند الظهيرة غالبا ما تكون لتناول وجبة الغداء، وقد يجد الصانع نفسه في بعض الحالات مستمرا في عمله إلى ساعة متأخرة من المساء؛ إذا كان مجبرا على الوفاء بتعهداته للزبائن في تسليمهم حاجاتهم في الوقت الذي حدده لهم مسبقا. وبالنظر إلى أن بعض المنتوجات الحرفية كانت ضرورية ويكثر الطلب عليها، فقد يجد الصانع نفسه مضطرا لمسايرة ذلك بالعمل لساعات إضافية.

من الطبيعي أيضا أن يكون هناك يوم للراحة والتوقف عن العمل، وغالبا ما يكون يوم الجمعة، كما أن العمل يتوقف أيام المناسبات المختلفة مثل الأعياد والأفراح، لكن يظهر أن بعض الصناع بمدينة تلمسان في الفترة المدروسة انتشرت بينهم عادة سيئة وهي ترك صلاة الجمعة؟ لفائدة العمل في الورشة، وهو الأمر الذي استنكره العقباني (ت 871هـ/1467م) واعتبره من المنكرات، وفي ذلك يقول: "ومن ذلك إهمال كثير من الناس وأهل الأسواق والحرف والأجراء شهود صلاة الجمعة... وقد تمادى كثير من أهل الصنائع على تركها واطِّراح حضورها"[3] ويعزو العقباني هذا الأمر إلى أصحاب الورشات الذين يستهدفون تحقيق أرباح طائلة غير مكترثين بشعيرة صلاة يوم الجمعة[4].

3- نظام الأجور:

من المعلوم أن الأجرة التي يتقاضاها الحرفي ترتبط أساسا بالمنتوج الذي يقدمه للزبون، لذلك، فكلما تطلب إنجاز عمل ما وقتا أطول واحتاج إلى مواد كثيرة وثمينة وتقنيات معقدة؛ طلب الصانع أجرة أرفع. ولئنا أشرنا

---

[1]- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، الطبعة السابعة، دار نهضة مصر للنشر، الجيزة- مصر2014، ج2، ص 856.

[2]- المصدر نفسه، ص ص 856-857.

[3]- العقباني، محمد بن أحمد، تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، تحقيق علي الشنوفي، Extrait du bulletin d'études Orientales de l'institut français de damas, Tome XIX- 1967. ، ص 32.

[4]- المصدر نفسه، ص 32.

من قبل إلى أن صاحب الورشة ما كان يعطي المبتدئ الملتحق بورشته ليتعلم إلا أجرة زهيدة[1]، فلا جرم أن الصانع المتمكن في الورشة ذاتها كان يحصل على أجرة محترمة مراعاة للتدرج.

تختلف أجور الحرفيين بالنظر إلى اختلاف الصنائع وتعددها، حيث يرى أحد الدارسين بأن أصحاب الحرف والصنائع – والمقصود هنا أصحاب الورشات الحرفية – بمدينة تلمسان كانوا يكسبون أموالا كثيرة ويعيشون في حياة راقية بسبب ارتفاع رواتبهم ومداخيلهم المالية، إلا أن وضعية الحرفيين والمستخدمين بالأجر اليومي كانت ضعيفة[2]. وبما أن المادة الخبرية لم تسعفنا كثيرا بما كان يتقاضاه الحرفيون واكتفت بالتعميم أحيانا أخرى، إلا أن ذلك لم يمنع – مثلا – من يحترف الدلالة من أن يحصل على أجرة محترمة، بحيث يشير أحد الدارسين إلى أن هذا الأخير – أي الدلال – كان يتقاضى نصف الربح من التاجر، وأحيانا يبيع السلعة بأكثر من السعر الذي حدده التاجر[3].

4- التسيير في الحرف:

كان على رأس كل تنظيم حرفي بمدينة تلمسان شخص يعرف بالأمين، ومن بين الشروط التي يجب أن تتوفر فيمن يتولى هذا المنصب الخبرة والدراية الكافية بالصنعة التي يشرف عليها، بالإضافة إلى مكانته داخل المجتمع الحرفي الذي ينتظم فيه. وحتى يباشر عمله بصفة رسمية، كان من الواجب أن يحظى بقبول من مؤسسة الحسبة[4].

وعلى هذا الأساس فقد كان على رأس كل طائفة حرفية أمين هو بمثابة الرئيس أو الشيخ، وكان عمله يتمثل في حل الخلافات التي تنشأ داخل الوسط الحرفي الذي يشرف عليه، وكان أيضا هو الواسطة بين الحرفيين وباقي مكونات النسيج الحضري بالمدينة. وقد تطرق إلى ذلك العقباني في كتابه "تحفة الناظر" في مسألة الدرهم الذي اجتمع أمناء التجار والحاكة على أن يأخذوه من كل شقة تُباع في السوق[5]. ولعل في جملته تلك إطلاقا صريحا للفظ الأمين وإشارة واضحة إلى دوره في تسوية الخلافات التي تخص قواعد التنظيم والتسيير في الحرف والدفاع عن مصالح الجماعة الحرفية[6].

5- الاستفتاء والعمل الحرفي:

---

[1]- ذكر ابن مريم في مصدره أن ابن زكري (تـ 900هـ/1494م) عندما أدخلته أمه دار طراز ليتعلم الحياكة كان يدفع إليه صاحب الدار مبلغ نصف الدينار. أنظر: البستان، ص 112.

[2]- عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، ج1، ص 222.

[3]- عز الدين عمر موسى، المرجع السابق، ص 284.

[4]- عبد اللطيف الخلابي، المرجع السابق، ص 412.

[5]- العقباني، المصدر السابق، ص 96.

[6]- محمد فتحة، النوازل الفقهية والمجتمع، أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي (من القرن 6 إلى 9هـ/12-15م) جامعة الحسن الثاني، عين الشق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء- المغرب1999، ص 271.

من يطالع المصنفات الفقهية في النوازل والأحكام سيلاحظ بأن الفقيه كان له دور مهم في تنظيم الحياة الاقتصادية بالمدينة الإسلامية، خاصة في جانبها المتعلق بالأنشطة الحرفية. وبالرغم من أن المجال الاقتصادي في الغرب الإسلامي كانت تؤطره الدولة المخزنية في الفترة الوسيطة ممثلة في مؤسسة الحسبة الإسلامية؟، إلا أن ذلك لم يمنع الفقيه من أن يكون هو الآخر مرجعا يقصده الحرفيون والصناع في بعض الحالات التي تتطلب رؤية فقهية، ولعل هذا الأمر هو الذي جعل أحد الباحثين يرى بأن الفقيه كان يتدخل في قضايا هي في الأصل من صميم عمل المحتسب، وبالتالي، يعتقد هذا الأخير بأنه لم تكن هناك استقلالية واضحة المعالم تفصل بين دور الفقيه والمحتسب في مسألة تنظيم المجال الحرفي بالمدينة خلال معظم فترات العصر الوسيط[1].

وتأسيسا على ما سبق، فإن من يتصفح كتاب "تحفة الناظر" للفقيه العقباني التلمساني، سيجد فيه أن هذا الأخير استعرض كثير من القضايا التي تخص الأنشطة الحرفية بالمدينة، ووقف مطولا عند منكرات الأسواق بتلمسان واستشراء مظاهر الغش والتدليس في بعض المنتوجات، بالإضافة إلى موقفه من المغارم والمكوس التي كانت تؤرق العامة من سكان المدينة وباديتها، خاصة الحرفيين منهم [2] ، ومما يسترعي الانتباه ويبرز دور الفقهاء في المجال الحرفي المناظرة الشهيرة بين الفقيهين القباب والعقباني في مسألة الحاكة[3].

البعد الاجتماعي للتنظيمات الحرفية بتلمسان (7-10هـ/13-16م)

لقد سبق وأن ذكرنا بأن الحرف والصنائع بمدينة تلمسان خلال الفترة المدروسة كانت كثيرة ومتنوعة، مما يعني أن التنظيمات الحرفية كانت هي الأخرى تساير هذا التعدد والتنوع، وما دام الأمر أصبح على هذا النحو، فهذا يعني أن المجال الحرفي بالمدينة كان يحظى بالتقدير والاحترام، إذ يمكن ملاحظة ذلك في موقف السلطة المركزية من الحرفيين وتقريب سلاطين الدولة الزيانية للصناع وتشجيعهم، وحث الفقهاء والصلحاء على الكسب الحلال، وانخراط مؤسسة الحسبة في العمل على تقويم وتصويب المخالفات والعادات السيئة التي ارتبطت ببعض الحرفيين أولا، واتخاذ التدابير اللازمة للحفاظ على المصلحة العامة وضمان حقوق المنتج والمستهلك ثانيا. ولعل ما يبرز الاهتمام بالحرفة والحرفيين هو التسميات التي عرفت بها المكونات المعمارية بتلمسان، حيث نجد مثلا مسجد الخراطين وباب القرماديين وسوق منشر الجلد. كما أن استقطاب المجال الحرفي لأعداد كبيرة من الأفراد داخل المجتمع يؤشر على مكانة الحرفيين الاجتماعية، وسنستعرض فيما يلي الجوانب المتعلقة بالأبعاد الاجتماعية للتنظيمات الحرفية وهي كالآتي:

---

[1]- لمرجع نفسه، ص 269.

[2]-العقباني، المصدر السابق، ص91.

[3]- العقباني، المصدر السابق، ص97. الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف: محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- المملكة المغربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان1981، ج5، ص297.

1- موقف العلماء من الحرف:

لا يخف على أحد أن الدين الإسلامي الحنيف أمرنا بالعمل والكسب المشروع، والآيات الكريمة كثيرة في هذا الموضوع، فقد قال الله تعالى في محكم التنزيل: " وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون"[1] هل دلالة هذه الآية على العمل الذي هو الحرفة؟ يرجى الرجوع إلى التفسير وقال أيضا: "فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون"[2] أما الأحاديث النبوية فهي الأخرى جاءت لتؤكد على ضرورة العمل وأهميته للفرد والمجتمع.

من هذا المنطلق، سنلاحظ بأن علماء المسلمين وفقهاءَهم في الغرب الإسلامي كان موقفهم مشجعا وداعما للعمل الحرفي لاعتبارات دينية واجتماعية تتعلق أساسا بتقديم خدمة لعناصر المجتمع المختلفة، ومن يتصفح كتب التراجم والمناقب سيلاحظ بأن عددا من علماء تلمسان وفقهائها كان يحترف صنعة معينة يتعيش منها، حيث يذكر يحي ابن خلدون في مصدره أن أبا إسحاق الخياط أحد صلحاء المدينة وأحد المقربين من السلطان الزياني يغمراسن بن زيان (633-681هـ/1235-1282م) كان يكسب رزقه من عمل الخياطة،[3] وبالنسبة للفقيه أبي عبد الله ابن البلد فقد كان هو الآخر يتصدق بالمال نظير ما يستنسخه بيده[4]. أما الفقيه محمد السنوسي (تـ 895هـ/1489م) فكان يقرأ بعد صلاة العشاء ما تيسر من الذكر الحكيم ثم بعد ذلك يبدأ عمله في استنساخ الكتب[5].

يتبين مما سبق ذكره أن بعض فقهاء تلمسان وعلمائها كانوا يحترفون بعض الصنائع مثل الخياطة ونسخ الكتب والطب، وهناك من احترف التدريس والتجارة على الاقتداء بالفئة الأولى، وهو ما سينعكس في النظرة إلى الحرفيين على اعتبار أن نشاطهم يستحق التقدير والاحترام.

ومثلما أوصى الفقهاء بضرورة العمل على الكسب الحلال أيا كان مصدره، فإنهم - في المقابل- كان لهم تحفظ فيما يخص الأنشطة الحرفية التي كانت تسبب ضررا أو إزعاجا للسكان بالمدينة. وعلى هذا الأساس، كان موقفهم يتمثل في إبعاد الحرف التي تؤذي السكان إلى أماكن قريبة من أسوار المدينة أو خارجها، والتصدي أيضا للتدليس والغش الذي اشتهر به بعض الحرفيين، ليس بتلمسان فحسب، وإنما في كل المدن الإسلامية[6].

2- أسماء الأماكن والأعلام المشتقة من الحرف:

---

[1]- التوبة، الآية 105.

[2]- الجمعة، الآية 10.

[3]- يحي ابن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص 155.

[4]- المصدر نفسه، ص 156.

[5]- ابن مريم، المصدر السابق، ص 428.

[6]- العقباني، المصدر السابق، ص 118.

يبدو أن المجال الحرفي ترك صدى في المجتمع التلمساني في الفترة محور الدراسة، وسيتجلى هذا الأخير في التسميات التي أطلقت على بعض مكونات النسيج الحضري للمدينة، والجدول التالي يبين أسماء الأفراد الذين تلقبوا باسم الصنعة التي كانوا يحترفونها.

اسم الشخص	حرفته	المصدر
أبو عبد الله ابن الحجام	الحجامة	بغية الرواد، ج1، ص137.
أبو علي؟ الحباك	الحياكة	بغية الرواد، ج1، ص143.
أبو العباس القطان	تجارة القطن	البستان، ص98/المناقب المرزوقية، ص146
أبو عثمان بن الخياط	الخياطة	بغية الرواد،ج1، ص155.
أبو اسحاق اللجام	اللجم	بغية الرواد، ج1، ص156.
أبو عبد الله المالقي الدباغ	الدباغة	بغية الرواد، ج1، ص302.
محمد بن النجار	النجارة	البستان، ص390.
يحي السراج	السروج	البستان، ص488.
أبو عبد الله ابن الحمال	الحمل والنقل	بغية الرواد، ج1، ص155.
أبو الحسن علي الجلاب	جلب الغنم	المناقب المرزوقية 162
أبو عبد الله الشوذي الإشبيلي	صناعة الحلوى	بغية الرواد، ج1، ص165

وبالرجوع إلى كتب المناقب والتراجم، فسنجد بأن الكثير من الأفراد –ومن ضمنهم الفقهاء– يُعرفون باسم الصنعة التي احترفوها، فنعثر على الحمال والحباك والقصار والسراج والغرابيلي والحجام وغيرها من الصفات التي تدل على أن العمل الحرفي كان يحظى بترحيب وقبول في أوساط المجتمع.

نجد أيضا أن العديد من التكوينات المعمارية بمدينة تلمسان الزيانية كانت تحمل أسماء الكثير من الحرف، بحيث نعثر على جامع الخراطين[1] ،مما يعني أن فئة الخراطين بالمدينة كانوا يتمركزون بالقرب منه، وجامع الحلفاويين[2]، وتسمية هذا الجامع تدل على أن من كان يحترف عمل الحلفاء كانوا ينتشرون في الدروب المحاذية له، وكان هناك درب بتلمسان الزيانية يطلق عليه اسم درب القبابين[3] بالنظر إلى تمركز من يحترف صناعة القبقاب فيه،

[1]– ابن مريم، المصدر السابق، ص 391.

[2]– المصدر نفسه، ص 103.

[3]– ابن مرزوق، المصدر السابق، ص ص 180-181.

وهناك أيضا درب السراجين والذي يبدو أنه كان مجالا مخصصا للحرفيين الذين يصنعون سروجا ويبيعونها[1]. وبتلمسان حمام الصباغين، كان موضع من يحترف الصباغة حواليه، فأخذ اسمه منهم[2].

ما يمكن أن نستنتجه مما سبق عرضه أن المجال الحرفي قد أثبت حضوره القوي بمدينة تلمسان الزيانية، بدليل أن بعض الأفراد أصبحوا لا يجدون حرجا في التلقب باسم الحرفة التي يمارسونها، وبما أن التكوينات المعمارية بالمدينة مثل المساجد والحمامات والدروب والساحات أصبحت هي الأخرى تحمل مسمى الحرفة التي تمارس بجوارها، فهذا يدل على أن العمل الحرفي أصبح مكونا أساسيا داخل المدينة.

3- تقريب السلاطين للحرفيين:

حظي المجال الحرفي بمدينة تلمسان في الفترة المدروسة باهتمام من لدن سلاطين الدولة الزيانية، وفي هذا السياق، ستكون التنظيمات الحرفية بالمدينة قريبة من السلطة المركزية بالنظر إلى استفادة إحداهما من الأخرى. فعندما جلس السلطان يغمراسن بن زيان على كرسي الحكم (633-681هـ/1235-1282م) طلب من أسرة بني الملاح الأندلسية أن تتولى وظيفة الإشراف على دار السكة بحاضرة الزيانيين تلمسان[3]، وقد خدم أفراد عدة من هذه الأسرة الدولة الزيانية في وظائف سلطانية[4].

ودائما في عهد السلطان المذكور، وحسب رواية ابن خلدون، فإن أحد الخياطين - واسمه أبو إسحاق الخياط - كان دائم التردد على السلطان يغمراسن (633-681هـ/1235-1282م)، ويستغل مكانته عند هذا الأخير ليقضي للناس حوائجهم، وعندما تعرض السلطان الزياني للوم على أيدي المقربين منه قال لهم: "دعوه فهو رحمة للناس وما قضى الله يقضيه والله لا أبرمته"[5] وهو ما يعني أن الولي الصالح أبا إسحاق الخياط استغل قربه ومكانته عند السلطان في قضاء حوائج العامة من سكان المدينة، مما يبرز الدور الاجتماعي للحرفيين من الصلحاء في محيطهم الذي كانوا يعيشون فيه، والتأثير الذي كانوا يمارسونه في بعض الأحيان لتقديم خدمات لفائدة المجتمع.

أما في فترة حكم السلطان أبي حمو موسى الثاني (760-791 هـ/1359-1389م) والذي أنشأ دار الصنعة -كما هو معروف- سنة 766 هـ/1365م ، فقد عمل على جلب الحرفيين والصناع على اختلاف تخصصاتهم من كل مكان لتعمير الدار المذكورة، فكان منهم حرفيون مسلمون وآخرون من أهل الذمة استعان بهم السلطان في تقوية جانب دولته، فكانت هذه الدار تضم عددا كبيرا من الحرفيين في أنشطة مختلفة استفادت منها الدولة المخزنية بصورة كبيرة[6].

---

[1]- المصدر نفسه، ص 275.

[2]- ابن مريم، المصدر السابق، ص 164.

[3]- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر و من عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحاذة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت- لبنان2000، ج7، ص ص140-141.

[4]- المصدر نفسه، ص 141.

[5]- يحي ابن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص 155.

[6]- المصدر نفسه، ج2، ص155.

ومما يبرز مكانة التنظيمات الحِرفية لدى سلاطين الدولة الزيانية حضورهم الدائم في المناسبات الاحتفالية التي كانت تقام بالمدينة، نلاحظ ذلك — مثلا – في وصية السلطان أبي حمو موسى الثاني لابنه إذ طلب منه أن يتفقد في أيام من السنة الطوائف المختلفة التي تقدم خدمات جليلة للدولة المخزنية أولا، وللمجتمع ثانيا، وأن يستقبل ممثلي هذه التنظيمات في حضرته، حيث يبدأ بالشرفاء ثم الفقهاء وأشياخ البلد ثم أمناء الحرف والصنائع[1]، ومن ينظر في وصية السلطان المذكور فسيجد بأن فئة الحرفيين والصناع كانت من الطبقات المقربة من السلطة المركزية في المناسبات الهامة.

هناك فئة هي الأخرى كان أفرادها محل ثقة السلطان وكانوا من المقربين منه جدا، ونقصد بذلك فئة الأطباء. وهذه الأخيرة –كما هو معلوم – كان يقع على عاتقها مداواة سلاطين الدولة وأهلهم وحاشيتهم المقربة منهم. وبالنظر إلى دور الأطباء وشرف مهنتهم، فقد حظي هؤلاء بمكانة محترمة وتقدير كبير، ومن الأمثلة على ذلك الطبيب أبو القاسم محمد بن أبي القاسم التلمساني، والذي عمل طبيبا للسلطان أبي تاشفين الأول (718-737هـ/1318-1337م)، واختص السلطان أبو حمو موسى الثاني بالطبيب أبي عبد الله محمد بن أبي جمعة التلاليسي، وبالطبيب موسى بن صموئيل ين يهودا الإسرائيلي الذي اشتغل بالطب في القصر السلطاني أيضا[2]، وكان لمعظم السلاطين الزيانيين أطباء مقربون منهم.

خدمات الحرفيين العامة للمجتمع:

استطاعت التنظيمات الحرفية بمدينة تلمسان الزيانية أن تضمن وتوفر خدمات كثيرة ومتنوعة للمجتمع التلمساني بجميع عناصره، وفي شتى المجالات لدرجة يصعب حصرها وتقييدها، مما يعني في نهاية المطاف أن إسهام الحرفيين والصناع كان على قدر كبير من الأهمية بالنظر إلى المنتوجات المختلفة التي استفادت منها الفئات الاجتماعية داخل المدينة وخارجها، وبالنظر أيضا إلى استقطاب يد عاملة كبيرة اتخذت من المجال الحرفي طريقا للكسب المشروع والاسترزاق، وهو الأمر الذي يؤشر على إيجابية الوسط الحرفي رغم تسجيل بعض النقائص والسلبيات التي كان مصدرها بعض الحرفيين، لكن في جميع الأحوال فلا يسعنا إلا أن ننوّه بمجهودات الحرفيين ونثمنها في آن واحد. ومن ضمن الخدمات العديدة التي لقيت استحسانا وتجاوبا من السكان بتلمسان نذكر الآتي:

1- العلم:

اهتمت الدولة الزيانية (7-10هـ/13-16م) كثيرا بالعلم واحتفت برجاله حتى في الفترات الحرجة التي تعرضت لها هذه الدولة، وعليه، يمكن القول بأن الحياة الثقافية ازدهرت بحاضرة تلمسان الزيانية، فإذا كان الأمر قد تم على هذا النحو؛ أفلا يكون من الصواب أن نتساءل عن دور الحرفيين في ذلك؟

---

[1]- أبو حمو موسى الزياني، واسطة السلوك في سياسة الملوك، تحقيق وتعليق: محمود بوترعة، دار الشيماء للنشر والتوزيع ودار النعمان للطباعة والنشر- الجزائر2012، ص 152.

[2]- عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، ج1، ص ص 248-249.

من المعروف أن الحياة الفكرية لم تكن لتزدهر بمدينة تلمسان لولا رعاية الدولة المخزنية لهذا الأمر؛ من خلال عملها على إنشاء معالم أخذت على عاتقها تنشيط الحركة الثقافية، والمقصود بذلك المساجد والمدارس في المقام الأول، والكتاتيب والزوايا في المقام الثاني. ولعل الفضل في تشييد هذه المعالم التي احتضنت الحياة الثقافية يرجع إلى جهود الحرفيين في البناء والتخطيط وأعمال النجارة التي أوكلت إليهم ؟؟؟، فكانت النتيجة أن بُنيَ عدد من المساجد والمدارس، منها على سبيل المثال: مسجد أبي الحسن التنسي (تـ696هـ/1269م)، ومسجد أولاد الإمام الذي بني سنة 710هـ/1310م، ومسجد إبراهيم المصمودي ومدرسة ابنا الإمام والمدرسة التاشفينية واليعقوبية[1].

وبعد أن أُنهيَت أشغال البناء، انبرى عدد من الحرفيين إلى الزخرفة، فأنجزوا أعمالا رائعة تمثلت أساسا في تزيين وزخرفة المعالم الوقفية من مساجد ومدارس، ومن ينظر إلى هذه المعالم من الداخل ومن الخارج فسيقف بلا شك على المجهود الكبير والرائع الذي بذله الحرفيون والصناع في الزخرفة على الجبص والخشب، وفرش الأرضيات بالزليج، وهي أشغال كانت تمتاز بالدقة نتيجة تفاني المعمار المسلم في عمله. وبما أن المعالم المذكورة كانت بحاجة إلى تجهيزات مثل المنابر والكراسي والخزانات والرفوف، فقد تكفل بهذه المهمة النجارون الذين صنعوا الأبواب والنوافذ وباقي التجهيزات الأخرى التي كانت مادتها الأساسية الخشب.

وفي الجانب الآخر كذلك، تكفل الحرفيون في الوراقة بتوفير الكتب التي تحتاجها الخزانات العلمية بالمعالم المذكورة، وأبدع المزخرفون ممن يحترف الوراقة في تزويق وتسفير بعض المصنفات العلمية التي يحتاجها طلبة العلم، وحتى تلك التي حُبست على الأماكن المقدسة في بلاد المشرق بأمر وتوجيه من السلطة المركزية.

2- العلاج:

اهتم سلاطين الدولة الزيانية بصحة السكان داخل المدينة وحتى المناطق القريبة منها، طبعا في حدود الإمكانيات المتوفرة والظروف العامة التي كانت تمر بها هذه الدولة، ولأن المادة الخبرية بهذا الخصوص تعتبر قليلة جدا، فلا نستطيع أن نضع بين يدي الدارس صورة مكتملة الجوانب لما كان عليه الوضع الصحي بالمدينة في الجانب المتعلق بجهود الدولة المخزنية، وكل ما لدينا في هذا الشأن هو ما أشار إليه يحي ابن خلدون على إثر المجاعة التي تعرضت لها مدينة تلمسان سنة 776 هـ/1374م ، والتي أدت إلى خسائر في الأرواح والممتلكات، فتدخل السلطان أبو حمو موسى الثاني للتخفيف من وطأة هذه الجائحة بأن أصدر أوامره بتخصيص إيرادات بيت المال لصالح الفئة المتضررة، وجُمِّع بالمناسبة عدد من هؤلاء بمارستان المدينة، هذا الأخير هو الذي تكفل بإيواء وإطعام المساكين[2]. ولعل في هذه الإفادة المصدرية ما يفيد بأن المارستان الذي كان موجودا بتلمسان ويعالج فيه المرضى تحول إلى بناية لمساعدة الفقراء والمساكين جراء الجائحة، وهنا، قد يتساءل بعضهم في ما إذا كان المارستان

[1]- عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، ج1، ص 142،143،145.

[2]- يحي ابن خلدون، بغية الرواد، ج2، ص 298.

المذكور قد تم تشييده في الفترة الزيانية أم يعود تأسيسه إلى فترة سابقة للزيانيين؟ لكن الأهم في هذا كله هو أن الحرفيين في البناء والتخطيط هم الذين يرجع لهم الفضل في تشييد هذا المارستان.

كان سلاطين الدولة والطبقة الخاصة والغنية هم أكبر المستفيدين من الطب بتلمسان في الفترة المدروسة، ومن بين الأطباء المشهورين وقتئذ موسى بن صموئيل بن يهودا الإسرائيلي ، وبحسب ما تذكره المصادر، فإن هذا الأخير قد انتهت إليه الرئاسة في الطب بتلمسان الزيانية ، وكان هذا الطبيب مقربا من السلطان أبي حمو موسى الثاني[1].

ولعل ما يلفت الانتباه ويثير التساؤل في هذا المقام أنه كيف لشخص من أهل الذمة – يهودي – أن ينصب على رأس الطائفة الحرفية التي تمتهن الطب؟ ألم يكن هناك أطباء مسلمون من أهل المدينة يستحقون هذا المنصب؟ لاسيما مع وجود شخصيات معروفة يُشهد لها بكفاءتها في الطب مثل أبي عبد الله الشريف التلمساني (تـ 771 هـ/1369م) وأبي عبد الله محمد بن أبي جمعة التلاليسي[2] . لكن الذي نود الإشارة إليه هو التنويه بجهود الأطباء في تقديم خدماتهم للطبقة الخاصة أكثر من غيرهم.

أما بالنسبة للعامة من سكان المدينة، فمعظمهم كان يتلقى علاجه على أيدي فئة أخرى ممن احترفوا المداواة، ومنهم الشرابون والعطارون والصيادلة، بحيث تضافرت جهود هؤلاء جميعهم في توفير ما يصلح لعلاج المرضى بالاعتماد على العقاقير والأعشاب الطبية المختلفة مثل الشيح والزعتر والنوخة و"فليو" و"العينون" و"بونافع"[3] وغيرها من الأعشاب التي استعملت في العديد من الأمراض المعروفة وقتئذ مثل الدماميل والأورام[4].

لم يقتصر الأمر في ميدان التطبيب والعلاج بتلمسان على فئة الأطباء والعشابين، بل تعدى ذلك إلى من يحترف الحجامة أيضا، حيث كان عمل هؤلاء يتمثل في استخراج الدم الفاسد من جسم الإنسان في أوقات معينة من السنة. ويبدو أن الحجامين بالمدينة مارسوا إلى جانب حرفتهم الأصلية أنشطة أخرى مثل الحلاقة وقلع الأسنان والأضراس وختان الأطفال[5]، فضلا عن فئة أخرى ذات علاقة بالمداواة وهم البياطرة، وهؤلاء كان عملهم يتمثل في مداواة الدواب من ماشية وحمير وخيل في وسط كان يعتمد بكثرة وبشكل متواصل على الدواب في حياته اليومية، خاصة فئة الحمالين.

يبقى لنا أن نشير في الأخير إلى أن الأوبئة الفتاكة–خاصة الطاعون– كانت تشكل تحديا كبيرا للأطباء بالنظر إلى جسامة مخلفاتها على جميع المستويات، وعليه، فقد كان الأطباء بتلمسان وغيرها من المدن الإسلامية في الفترة الوسيطية ينصحون الناس بالعزل والوقاية.

---

[1]-Robert Brunschvig, Deux Récit de Voyage inédites en Afrique du Nord aux XV Siècles Abdelbasit B-halil Et Adorme- Larose Editeurs- Paris1936, p46.

[2]– المقري التلمساني، أحمد بن محمد، نفح الطيب تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت– لبنان1988، ج5، ص 243.

[3]– محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية– الجزائر2011، ج2، ص

[4]– ابن مرزوق، المصدر السابق، ص 231.

[5]– محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان، 2، ص 16.

3- السكن:

يذكر ابن خلدون في مقدمة كتابه "العبر" أن حرفة البناء تعد من أقدم الحرف والصنائع التي مارسها الإنسان، ويعرّفها بالعمل على اتخاذ البيوت والمنازل للسكن والمأوى، وأن ما نشاهده من اختلاف في تخطيط الدور بالمدينة يرجع إلى عوامل جغرافية ومناخية بالإضافة إلى تقلب الناس بين حياة الغنى والفقر، وفي ذات السياق، يتطرق ابن خلدون إلى مسألة أخرى تتعلق بالبنائين، حيث يذكر بأن منهم البصير الماهر منهم القاصر[1].

ما يمكن ملاحظته بالنسبة لأشغال البناء بمدينة تلمسان هو المنحى التصاعدي الذي عرفته المدينة منذ تأسيسها خصوصا في الفترة متناول الدراسة، وشهد النسيج الحضري توسعا كبيرا منذ أن أصبحت المدينة حاضرة للدولة الزيانية منتصف القرن 7 هـ/13م ، والفضل في هذا كله يرجع إلى عمل البنائين بالدرجة الأولى، بحيث أخذوا على عاتقهم توفير السكن والمأوى لسكان المدينة. ولنا في شهادة ابن خلدون التي سجلها وقتئذ ما يفيد بذلك، حيث يقول: "ولم يزل عمران تلمسان يتزايد وخطتها تتسع الصروح بها بالآجر والفهر تعلى وتشاد، إلى أن نزلها آل زيان فاختطوا بها القصور المؤنقة والمنازل الحافلة واغترسوا الرياض والبساتين ... فأصبحت أعظم أمصار المغرب ورحل إليها الناس من القاصية، ونفق بها أسواق العلوم والصنائع، وضاهت أمصار الدول الإسلامية والقواعد الخلافية"[2]. والمتأمل في هذا الكلام يتضح لديه الدور الكبير والمهم الذي قام به الحرفيون في البناء؛ حتى تصبح المدينة على الشكل الذي قرره ابن خلدون ونوه به هو وغيره من الجغرافيين الذين وصفوا خطة المدينة ونسيجها المعماري.

ومع توطيد نظم الدولة الزيانية وقواعدها بتلمسان، وبالنظر كذلك إلى الحركة التجارية التي كانت المدينة طرفا فاعلا فيها في الفترة المدروسة، فقد استدعى كل ذلك من السلطة المركزية أن تواكب هذه التحولات، خاصة بعد أن انتقلت الدولة الزيانية من طور البداوة إلى مرحلة التمدن من خلال الاعتماد على فئة الحرفيين منهم، خاصة أولئك الذين كانوا ينشطون في بناء وتخطيط الدور والمنازل للطبقة الغنية من سكان تلمسان. ويظهر أن أشغال البناء لم تقتصر على اليد العاملة المحلية بل تعدتها إلى الوافدة على المدينة من الأندلسيين، هذه الأخيرة كانت لها خبرة ودراية أكبر بالبناء والتزويق، فأسهم كل هؤلاء في النهضة العمرانية التي شهدتها المدينة ونسيجها المتمثل في القصور والدور والبساتين. وتذكر المصادر التاريخية أن عدد الدور المبنية في تلمسان قد بلغ زمن حكم السلطان أبي تاشفين (718-737 هـ/1318-1337م) حوالي ستة عشر ألف كانون، وقطعت المدينة شوطا مهما في التحضر والازدهار لم تعهده سابقا[3].

---

[1]- ابن خلدون، المقدمة، تحقيق وتعليق وتقديم: عبد السلام الشدادي، الطبعة الأولى، بيت العلوم والفنون والآداب، الدار البيضاء- المغرب2005، ج2، ص ص 294-295.

[2]- ابن خلدون، العبر، ج7، ص105.

[3]- الوزان، وصف افريقا، ج2، ص 17.

وبعد أن أُنهِيت أشغال البناء بالدور والمنازل، تقدم حرفيون آخرون في الزخرفة ليتمموا عمل البنائين. ومن الطبيعي جدا أن يكون عمل المزخرفين يقتصر – كما هو معروف – على منازل الطبقة الغنية من سكان المدينة، وعليه، أنجز هؤلاء الحرفيين أعمالا رائعة باستعمال الجبص والزليج والخشب. وفي هذا السياق، هناك من يشير إلى أن دور الأغنياء بتلمسان فُرشت أرضياتها بالرخام وكُسيت أيضا جدران هذه البيوت بالكلس أو الزليج[1].

يتبين أن العمل الحرفي الذي بدأه البناؤون أكمله المزخرفون، لكن كما ذكرنا، فإن الأمر تم على مستوى منازل الفئة المحظوظة من سكان المدينة كما هو الحال في جميع مدن العالم الإسلامي، ذلك أن النسيج الحضري داخل المدينة الإسلامية كان يتشكل في الغالب من منازل بسيطة، ولعل هذا الوضع هو الذي جعل أحد الجغرافيين يصرح لما عقد مقارنة بين مدينتي تلمسان وفاس بأن الأخيرة أجل قدرا وأكثر خيرا ومالا وأعلى همة في المباني واتخاذ الديار الحسنة[2]، وهي المعلومة التي وجدناها عند الوزان في القرن 10 هـ/16م ، والذي يخبرنا هو الآخر بأن دور تلمسان أقل قيمة بكثير من دور فاس[3] . لكن ما يهمنا نحن هو أن التوسع العمراني الذي شهدته مدينة تلمسان في الفترة الزيانية تم بفضل سواعد البنائين.

4- الملبس:

اجتهد الحرفيون في أعمال النسيج والأنشطة المرتبطة بهذه الصناعة مثل الخياطة والحياكة في توفير ما يلبسه سكان المدينة وباديتها وحتى من يقصد تلمسان للاتجار فيها، بحيث كان بعض التجار يقتنون ما يُحاك في الورشات الصناعية، خاصة وأن تلمسان كانت مشتهرة منذ زمن بصناعة المنسوجات المختلفة بالنظر إلى معطيات ترتبط بتوفر المواد الأولية مثل الصوف والقطن والكتان، بالإضافة إلى اليد العاملة المحلية والأجنبية الوافدة إليها من الأندلس، وتشجيع الدولة المخزنية لهذه الصناعة، ويتجلى ذلك في وضع مقياس كان مثبتا على لوح من رخام كان يستعين به الباعة والمشترون في السوق الأعظم المعروف بالقيصارية، وكان الغرض من وضع المقياس المذكور حل أي خلاف يمكن أن يحدث أثناء عقد الصفقات التجارية فيما يرتبط بالمنسوجات الحرفية، وكان ذلك حوالي سنة 728هـ/1328م في عهد السلطان أبي تاشفين (718-737 هـ/1318-1337م)[4].

تأسيسا على ما سبق ذكره، يمكن القول بأن النساجين بمدينة تلمسان تمكنوا من توفير الألبسة التي تحتاجها الفئات الاجتماعية الغنية والفقيرة على حد سواء، بحيث تذكر المصادر بأن لباس التلمسانيين كان أكثر

---

[1]- مهتاري زرقة فايزة، المسكن التقليدي في تلمسان خلال العهد الزياني (دراسة تاريخية أثرية) دورية كان التاريخية، العدد 58، السنة الثامنة، يونيو2015، دار ناشري- الكويت2015، ص 94.

[2]- الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة الثانية، مكتبة لبنان1984، ص135.

[3]- الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ص 19.

[4]- Atallah Dhina, Les états de l'occident Musulmans aux XIII^{e},XIV^{e} et XV^{e} siècle, Office des Publications Universitaires- Alger1984, p354.

أناقة مما هو عليه الحال بمدينة فاس[1]. وفي السياق ذاته، يذكر مصدر آخر بأن تجار مدينة تلمسان كانوا يرتدون في الغالب لباسا جميلا يكون أحسن أحيانا من لباس أهل فاس، ويختلف اللباس من فئة إلى أخرى كل حسب طاقته[2]. وأما ياقوت الحموي، فإنه يذكر هو الآخر بأن نساء تلمسان كن يتخذن من الصوف أنواعا من الكنابيش لا توجد في غيرها من المدن الإسلامية الأخرى، وهو ما يعطي الدليل على أن فئة النساجين بالمدينة بذلت مجهودات معتبرة في توفير الملبس بشكل يستجيب لمتطلبات السكان داخل تلمسان وخارجها.

يظهر أن جهود الحرفيين في النسيج بمدينة تلمسان الزيانية كانت مهمة للغاية من حيث الإنتاج أولا، ومن حيث القيمة ثانيا، وهو ما أفصحت عنه المادة الخبرية التي كنا قد أشرنا إليها في السابق، مما جعل المدينة تحتل شهرة واسعة في المنسوجات خلال العصر الوسيط. ومما يؤشر على النوعية الرفيعة لورشات النسيج ودور الطراز بالمدينة؛ ما دوّنه ابن خلدون في رحلته الشهيرة التي تحدث فيها عن أن سلطان تلمسان أبا زيان محمد الثاني (797-801 هـ/1394-1399م)؛ كان قد أرسل هدية إلى ملك مصر برقوق (781-801هـ/1382-1399م) اشتملت على ثلاثين من الجياد بمراكبها المموهة، وأحمال من الأقمشة التي كانت تنسج بتلمسان[3]، وهو ما أكده مصدر آخر عندما أورد بأن الطلب كان كبيرا على منتوجات تلمسان من أهل الشرق والغرب[4]. ولعل في هذه الإشارات المصدرية ما يفيد بالعمل الكبير الذي تم على مستوى ورشات النسيج بتلمسان في الفترة المدروسة.

5- توفير الماء:

لا يخف على أحد أن الماء عنصر ضروري للحياة بالنظر إلى استخداماته العديدة في المجالات المختلفة، والتي تتعلق بالحياة اليومية لمكونات المجتمع. وما دام الأمر كذلك، فإننا سنلاحظ بأن الدولة المخزنية بمدينة تلمسان الزيانية ستأخذ في حسبانها منذ البداية توفير هذه المادة الحيوية بكل الطرق والأساليب الممكنة، خاصة مع التوسع العمراني الذي شهدته تلمسان على فترات تاريخية متتالية، ومع ما يعني ذلك من زيادة كبيرة في عدد السكان، وبالتالي سيكون الحرفيون ممن يشتغل في البناء والهندسة وصناعة الفخار أمام تحدٍّ كبير يتمثل في مد المياه داخل المدينة ليستفيد منها عامة السكان والتكوينات المعمارية المتواجدة فيها، وكان يطلق على هؤلاء الحرفيين ينعتون بالقنويين.

---

[1]- مارمول كاربخال، إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية: محمد حجي وآخرون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع- الرباط 1989، ج2، ص 300.

[2]- الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ص 21.

[3]- ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، عارضها بأصولها وعلق حواشيها: محمد بن تاويت الطنجي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان2004، ص 271.

[4]- يحي ابن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص 130.

قام القنويون في تلمسان بعمل كبير عندما تمكنوا من تخطيط شبكة من القنوات وبنائها داخل المدينة وخارجها أيضا. ويظهر أن هذه القنوات كانت محكمة البناء، وكان جزء منها مغطى تحت الأرض[1]. ولعل في هذه الجملة الأخيرة ما يظهر حرص السلطة المركزية على ضمان تزويد المدينة بالماء في الحالات الاستثنائية، خاصة إذا تعرضت هذه الأخيرة لحصار خارجي من دولة معادية كما حدث مع المرينيين عندما فرضوا حصارا على تلمسان استمر لثماني سنوات أواخر القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي[2]. وعلى هذا الأساس اشتغل القنويون بتفان وجهد كبيرين، ووظفوا مهاراتهم وخبرتهم في ذلك بأن أنشؤوا شبكة من قنوات المياه مدفونة في باطن الأرض يصعب العثور عليها إلا ممن كان قد شارك في بنائها[3]، وهو ما يفيد بأن البنائين – ومن جملتهم القنويون – بذلوا مجهودات في غاية الأهمية فيما يتصل بتوفير الماء داخل المدينة.

لم يقتصر عمل القنويين بتلمسان على بناء شبكة من قنوات المياه، بل تعدى الأمر أيضا إلى تشييد عدد من السقايات التي كانت تتواجد ببعض الأماكن داخل المدينة، وهذه الأخيرة كانت في الأصل بنايات تتدفق منها المياه عبر القنوات المذكورة سابقا. ويبدو أن البنائين بتلمسان ومعهم المزخرفون قد تفننوا في تزيين البنايات المذكورة، حتى أنها وُصفت من قبل المصادر الجغرافية بأنها مبنية بكامل العناية وبأسلوب فني ورائع[4].كما صنع البناؤون بأمر من السلطان الزياني أبي تاشفين (718-737 هـ/1318-1337م) صهريجا كبيرا كانت المياه تتجمع فيه، ثم بعد ذلك تُرسل عبر قنوات لتزويد سكان المدينة بالماء[5].

وفي ما يتصل بنشاط ومجهودات الحرفيين في توفير الغذاء اليومي لسكان تلمسان وباديتها، فسيلاحظ الدارس في هذا الخصوص بأن من يحترف طحن الحبوب وأصحاب الأفران المنتشرة بأحياء المدينة كانوا يقدمون خدمة ضرورية للعامة، إذ لا يمكن الاستغناء عن جهود هؤلاء ودورهم في توفير القوت اليومي للأفراد. ويبدو أن عمل الدقاقين والخبازين كان مهما داخل النسيج الحضري، خاصة أوقات الجوائح والحصار الذي كانت تتعرض له تلمسان بين الحين والآخر ، وهذا بالرغم من انتشار بعض العادات السيئة عند أصحاب الأفران ودكاكين بيع الخبز، وقد أشار إلى ذلك الفقيه العقباني في كتابه "تحفة الناظر"[6] في أكثر من مناسبة، إلا أن وجود هذه الفئة من الحرفيين كان من شأنه ضمان متطلبات العامة بشكل مستمر.

---

[1]- عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، ج1، ص149.

[2]- حاصر السلطان المريني أبو يوسف يعقوب (656-685هـ/1258-1286م) مدينة تلمسان لثماني سنوات وثلاثة أشهر، وكان حصارا قاسيا على المدينة وأهلها نالهم فيها من الجهد ما لم ينله أمة من الأمم، واضطروا إلى أكل الجيف والقطوط والفئران حتى أنهم زعموا أنهم أكلوا فيها أشلاء الموتى من الناس وخربوا السقف للوقود وغلت أسعار الأقوات والحبوب وسائر المرافق بما تجاوز حدود العوائد، وبعد مقتل السلطان المريني المذكور، كتب بنو زيان في سكتهم ما أقرب فرج الله. أنظر: ابن خلدون، العبر، ج7، ص ص 128-129.

[3]- الوزان، وصف إفريقيا، ج2، ص 20.

[4]- المصدر نفسه، ص 20.

[5]- التنسي، محمد بن عبد الله، نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق وتعليق: محمود آغا بوعياد، موفم للنشر- الجزائر2011، ص 140.

[6]- العقباني، المصدر السابق، ص113.

ودائما بخصوص توفير القوت اليومي للأفراد بالمدينة، وُجدت أنشطة حرفية عديدة ذات صلة بتوفير الغذاء للسكان، مثل الجزارة التي عمل أصحابها على توفير اللحم ومشتقاته، بالإضافة إلى الدكاكين التي كانت تبيع الحليب والزبدة والسمن والعسل والزيتون ومختلف المأكولات والأشربة التي يحتاجها الفرد، خاصة أولئك الذين يقصدون مدينة تلمسان لقضاء حوائج معينة أو للاتجار فيها، وكان لوجود فئة كبيرة من الحمالين والدلالين شأن في ازدهار الأنشطة الحرفية المرتبطة بتوفير غذاء السكان.

سيكون من الصعب جدا أن نتطرق إلى مجهودات كل الحرفيين بمدينة تلمسان في الفترة متناول الدراسة ودور التنظيمات الحرفية في هذا الخصوص؛ بالنظر إلى اعتبارات عديدة يأتي في مقدمتها كثرة الحرف والصنائع وتنوعها داخل النسيج الحضري للمدينة الإسلامية، لكن ليس باستطاعة أحد أن ينكر المجهودات الكبيرة الملقاة على عاتق الحرفيين والصناع في تأمين حياة تستجيب لمتطلبات المجتمع، وفي الوقت نفسه تعطي قيمة للعمل الحرفي وتشجع على الكسب الحلال.

خاتمة:

إن تنظيم المجال بمدينة تلمسان في الفترة قيد الدراسة (7-10 هـ/13-16م)كان مسألة في غاية الأهمية، خصوصا في الجانب المتعلق بالأنشطة الحرفية وتمركزها داخل النسيج الحضري للمدينة الإسلامية في الفترة الوسيطية. أخيرا وفي هذا السياق، يمكن القول بأن التنظيمات الحرفية كانت أحد العناصر الفاعلة في تنظيم المجال بالنظر إلى ما كانت تتوفر عليه من قواعد وأسس وتقاليد ترسخت لديها عبر فترات تاريخية متعاقبة، ولعل الحضور القوي والبارز للمجال الحرفي بتلمسان الزيانية كان من الممكن أن لا تظهر مكتسباته لولا تلك الثقة والعلاقة التي كان أحد أطرافها الصناع وطرفها الثاني الأفراد، وهو ما تجسد على أرض الواقع بالرغم من بعض التصرفات السلبية التي صدرت من بعض الحرفيين.

يظهر أن المجال الحرفي بمدينة تلمسان الزيانية كان يشكل لوحده مجتمعا قائما بذاته، بدليل أن جميع مكوناته وعناصره الرئيسية احتوتها التنظيمات الحرفية ، هذه الأخيرة يعود لها الفضل في تنظيم وتأطير العمل الحرفي من الداخل والذي كان بدوره يخضع لنظم وأعراف كان على الحرفي التقيد بها، وعلى هذا الأساس، ساغ القول بوجود مدونة خاصة بالحرفيين تضمنت كثيرا من التفاصيل، والتي تتلخص في توزيع الأنشطة الحرفية مع مراعاة الانتماء الديني في ذلك. كما روعي أيضا مبدأ التخصص بالإضافة إلى التوقيت في العمل والأجرة التي كان يتقاضاها الحرفي ونظّم التسيير في الحرفة الواحدة، وهو الأمر الذي مكننا من التعرف على النظام الداخلي للتنظيمات الحرفية. وتبين لنا بوضوح أن الآليات والطرق المتبعة في تلمسان بخصوص المجال الحرفي كانت تشبه إلى حد ما تلك المعتمدة في باقي المدن الإسلامية في الفترة الوسيطية، طبعا باستثناء بعض الخصوصيات التي تميز مدينة عن أخرى.

سيلاحظ الدارس أيضا بأن التنظيمات الحرفية بمدينة تلمسان استحوذت على حيز هام داخل النسيج الحضري بالنظر إلى طبيعة نشاطها المتمثل في توفير متطلبات الزبائن، وعليه حظيت الحرف باهتمام من السلطة المركزية في أكثر من مناسبة، ولعله بقدر ما كان الغرض من استحداث نظام الحسبة المذهبية تقويم العمل الحرفي، فقد كان في الوقت نفسه لتوفير غطاء شرعي سمح للتنظيمات الحرفية المختلفة بالدفاع عن مصالحها. وبالاعتماد على أدبيات المناقب والتراجم، فقد سجلنا الحضور القوي للصناع من خلال التسميات التي أطلقت على المكونات المعمارية داخل المدينة والتي اشتقت من الممارسة الحرفية.

لقد كان لتعدد الأنشطة الحرفية بمدينة تلمسان خلال الفترة المدروسة (7-10 هـ/13-16م) أثرا مهما في الازدهار الذي عرفته المدينة إذ أسهم الحرفيون والصناع بقدر لا بأس به في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، بحيث لا يستطيع الدارس أن يقدم حصيلة مكتملة للخدمات التي اقترنت بالمجال الحرفي. لكن مع ذلك، يمكن القول بأن الأنشطة الحرفية التي مست البناء والزخرفة وتوفير اللباس وتوصيل الماء وتحصيل الأقوات وتوفير الأدوات والوسائل المختلفة التي كان المجتمع في حاجة ماسة لها؛ ما كانت لتصبح أمرا واقعا لولا اجتهاد الحرفيين والصناع وتفانيهم في العمل بما يعود بالمنفعة العامة على السكان، حتى وإن لم نجد إلا إشارات خفيفة تخص المجال الحرفي.

قائمة البيليوغرافيا:

المصادر:

التنسي، محمد بن عبد الله، نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق وتعليق: محمود آغا بوعياد، موفم للنشر- الجزائر2011.

أبو حمو موسى الزياني، واسطة السلوك في سياسة الملوك، تحقيق وتعليق: محمود بوترعة، دار الشيماء للنشر والتوزيع ودار النعمان للطباعة والنشر- الجزائر2012.

الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، الطبعة الثانية، مكتبة لبنان1984.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، الطبعة السابعة، دار نهضة مصر للنشر، الجيزة- مصر2014.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر و من عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحاذة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت- لبنان2000.

ابن خلدون، المقدمة، تحقيق وتعليق وتقديم: عبد السلام الشدادي، الطبعة الأولى، بيت العلوم والفنون والآداب، الدار البيضاء- المغرب2005.

ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، عارضها بأصولها وعلق حواشيها: محمد بن تاويت الطنجي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان2004.

ابن خلدون، يحي، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تقديم وتحقيق وتعليق: عبد الحميد حاجيات، طبعة خاصة، عالم المعرفة للنشر والتوزيع- الجزائر2011.

الشيزري، عبد الرحمن بن نصر، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق ومراجعة: السيد الباز العريني، الطبعة الثانية، دار الثقافة، بيروت- لبنان1981.

العقباني، محمد بن أحمد، تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، تحقيق علي الشنوفي، Extrait du bulletin d'études Orientales de l'institut français de damas, Tome XIX- 1967

مارمول كاربخال، إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية: محمد حجي وآخرون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع- الرباط 1989.

ابن مرزوق، أبو عبد الله محمد، المناقب المرزوقية، دراسة وتحقيق: سلوى الزاهري، الطبعة الأولى، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- المملكة المغربية2008.

ابن مريم، المديوني التلمساني، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، تحقيق: عبد القادر بوباية، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان2014.

المقري التلمساني، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت- لبنان1988.

الوزان، الحسن بن محمد الفاسي، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان1986.

الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف: محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- المملكة المغربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان1981

المراجع:

أحمد مختار العبادي، الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية (الصناعة والأصناف) مجلة عالم الفكر، المجلد11، العدد1، أبريل- مايو- يونيو1980، وزارة الإعلام- الكويت1980

إلياس الحاج عيسى، الحرف اليدوية في المغرب الأوسط (تلمسان أنموذجا) ضمن كتاب "تلمسان الإسلامية بين التراث العمراني والمعماري والميراث الفني" أعمال الملتقى الدولي بتلمسان، أيام 3-4-5 أكتوبر 2011، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف- الجزائر2011

خالد محمد مصطفى عزب، تخطيط وعمارة المدن الإسلامية، سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- قطر، العدد58، ربيع الأول 1418، السنة السابعة عشر، الطبعة الأولى، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- قطر1997

سناء عطابي، واقع اليهود في المغرب الأوسط من خلال النصوص الفقهية المالكية، مجلة الآداب والعلوم الإنسانة، العدد12، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة قسنطينة- الجزائر2011.

عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية) موفم للنشر والتوزيع- الجزائر2002.

عبد اللطيف الخلابي، الحرف والصنائع وأدوارها الاقتصادية والاجتماعية بمدينة فاس خلال العصرين المريني والوطاسي (669-960هـ/1270-1550م) الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة- مصر2011

عز الدين عمر موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان2003.

عمر سعيدان، علاقات اسبانيا القطلانية بتلمسان في الثلثين الأول والثاني من القرن الرابع عشر الميلادي، الطبعة الأولى، منشورات سعيدان- تونس2002.

محمد بن رمضان شاوش، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر2011.

محمد حسن، التجار والحرفيون بافريقية بين القرنين السادس والتاسع الهجري (12-15م) ضمن كتاب "المغيبون في تاريخ تونس الاجتماعي" إعداد: مجموعة من الباحثين، تنسيق: الهادي التيمومي، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة- تونس1999.

محمد فتحة، النوازل الفقهية والمجتمع، أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي (من القرن 6 إلى 9هـ/12-15م) جامعة الحسن الثاني، عين الشق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء- المغرب1999.

مهتاري زرقة فايزة، المسكن التقليدي في تلمسان خلال العهد الزياني (دراسة تاريخية أثرية) دورية كان التاريخية، العدد 58، السنة الثامنة، يونيو2015، دار ناشري- الكويت2015.

Atallah Dhina, Les états de l'occident Musulmans aux XIII^{e},XIV^{e} et XV^{e} siècle, Office des Publications Universitaires- Alger1984.

Robert Brunschvig, Deux Récit de Voyage inédites en Afrique du Nord aux XV Siècles Abdelbasit B-halil Et Adorme- Larose Editeurs- Paris1936.

i